عوامل الشعور بالسعادة لدى الأطفال

أ. د. راندا مصطفى الديب *

تمهيد

إن تربية الأطفال وتنشئتهم التنشئة الصحيحة هي من أهم الواجبات التي يقابلها الوالدان، وهي أمر صعب جدًا، فإن الخيط الرفيع الذي يفصل بين القسوة والتوجيه أو الحرمان والعطاء هو أمر غير معروف، وليس له نظريات علمية دقيقة تُطبَّق في كل الحالات لتأتي لنا دائمًا بنفس النتائج، فقد قِيل سابقًا إن العَصَا لمن عَصَى، وقيل إن العصا هي خير مُربٍّ، ولكن هل هذا صحيح؟ إن العلم يقول عكس ذلك فالعصا قد تؤدي إلى الانفلات والعناد، وقد تؤدي إلى الانكماش والتقوقع، وهكذا نجد الوالدين في حيرة من الأمر في التربية. ويكمن سِرُّ أهمية التربية للصغار في أنها تقع في سِنِّ التكوين الشخصيّ عقليًا وجسميًا، وبهذا فإن التربية في هذا العمر ترسم علاماتها على حياة الطفل حتى كبَره وشيخوخته؛ فنحن نجد أن بعض الدراسات تقول: ثبت أن الانطوائيين أو المتسلطين أو المتهورين كانوا قد تعرضوا لتربية خطأ في صِغَرهم.

الاهتمام بالأطفال من ضمن المعايير التي يُقاس بها مدى تقدم المجتمعات؛ إذ إن الاهتمام بتلك المرحلة في أي مجتمع، هو في الواقع اهتمام بمستقبل هذا المجتمع (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 3 ،2006)، كما أنها مرحلة ترسيخ القيَم الأخلاقية والاجتماعية والمفاهيم النفسية، بحيث يتعرف الطفل إلى نفسه وعلاقاته بالآخرين ممَّن هم خارج أسرته (الديب، راندا، 32 ،2018).

فكان يرى شتاينر أننا إذا أردنا تربية أطفالنا، ليصبحوا بالغين أحرارًا، فيجب أن نبدأ تعليمهم قبل سِنِّ السابعة، في بيئةٍ يستطيعون فيها محاكاة الأنشطة الإنسانية ذات الأهمية والقيمة؛ وإذا أردنا إعدادهم ليكونوا بالغين ممارسين للعدالة مع الآخرين، لا بد أن نضمن وجود

* أستاذ أصول تربية الطفل بكلية التربية – جامعة طنطا – مصر.

سلطة طبيعية وحقيقية تقف أمامهم فيما بين سن السابعة والرابعة عشرة؛ إذا أردنا لأطفالنا أن يصبحوا بالغين يتخذون قراراتهم الاقتصادية والمادية على أساس مبادئ المجتمع وحب الناس، واجب علينا أن نعلمهم في مراهقتهم بالحب، ونوجههم صَوْب المُثُل العليا (Steiner, 1997, xviii).

ولماذا يفعل الأطفال دومًا أمورًا يجب ألَّا يفعلوها ويقومون بأشياء غير مسموح عملها: عناد – شِجَار – جدال – استفزاز – مضايقة – فوضى؛ أي أنهم يبدون عمومًا وكأنهم يريدون مضايقة الأم والأب... ولماذا يبدو بعض الأطفال يستمتعون في الواقع بالانخراط في المشاكل؟

كما أنك تسأل ما السرُّ وراء لعب الأطفال؟ فهم يلعبون لسببٍ واحدٍ فقط: لديهم "حاجات غير مُشبَعة، "غير أنك قد تسأل: (أيَّة حاجات لدى أطفالي لم يتم إشباعها؟ فأنا أُطعمهم.. وأكسوهم.. وأشتري لهم اللُّعَب)... حسنًا ولكن هناك بعض الحاجات الإضافية – وتتوافر لحُسن الحظ بثمن زهيد جدًا – التي تتجاوز الحاجات الأساسية المذكورة، وهذه الحاجات الغامضة تُعدُّ أساسية ليس فقط لإسعاد الأطفال وإنما للإبقاء على الحياة نفسها، وربما توضح القصة التالية هذا الأمر بشكلٍ أفضل (بيدولف، ستيف ،45-48 ،1999).

في عام 1945م، انتهت الحرب العالمية الثانية مُخلِّفةً وراءها الخراب في أوروبا.. وكان من بين المشكلات الإنسانية العديدة التي يجب معالجتها مشكلة العناية بآلاف الأيتام الذين فقدوا آباءهم إمَّا نتيجة الموت أو الانفصال الدائم والحرمان، أرسلت سويسرا التي بقيت خارج ساحة الحرب بعثةً صحيةً للبدء في معالجة بعض هذه المشكلات، وقد عُهد إلى أحد الأطباء بإجراء بحث للاطِّلاع على أفضل طريقة لرعاية الأطفال الأيتام، تنقَّل الطبيب في أرجاء أوروبا وزار عدة أنماط من مراكز الرعاية للتعرُّف إلى أنجَح أسلوب في الرعاية.

شاهد عدة أنماط كان بعضها على طرف نقيض من الآخر.. ففي بعض الأماكن، أُقيمت مستشفيات ميدانية أمريكية وُضِع الأطفال فيها في أسِرَّة أنيقة، وفي أجنحة صحية؛ بحيث كانوا يحصلون كل أربع ساعات على وجبة من الحليب المُعدّ بعناية تقدمه لهم ممرضات على أعلى درجة من النظافة.

وفي المقابل كان باقي الأطفال في قرية تحت رعاية القرويين، وهنا كان الأطفال يترعرعون بين ذراعَيْ نساء القرية محاطين بالأطفال والكلاب والماعز، ويتغذون بحليب الماعز وطعام أهل القرية في القِدْر على نار هادئة.

لجأ الطبيب السويسري إلى طريقة بسيطة للمقارنة بين الأشكال المختلفة من الرعاية، لم يَكُن بحاجة إلى قياس وزن الأطفال ولا حتى للبحث عن الابتسامات والانسجام، بل لجأ إلى أبسط أنواع الإحصاء، وهو معدل الوَفيَات في وقتٍ انتشرت فيه الأنفلونزا. أما ما اكتشفه فكان مفاجأة.!!

نجح أطفال القرى في البقاء في قيد الحياة أكثر من أقرانهم الذين يتلقَّوْن الرعاية العلمية والطبية في المستشفيات، في وقتٍ اجتاحت الأوبئة أوروبا وكثُرت الوفيات بين الناس هناك.

لقد اكتشف الطبيب أمرًا عرفته الزوجات المُسنَّات منذ عهدٍ بعيد غير أن أحدًا لم يَكُن في الحقيقة يستمع إليه.. اكتشف أن الأطفال الصغار يحتاجون إلى «الحب» لكي يبقوا في قيد الحياة.

لقد كان لدى أطفال المستشفيات الميدانية كل شيء عدا العاطفة والإثارة. وكان لدى أطفال القرى كثيرٌ من [الضَّمّ.. والعناق.. والهَزّ والأشياء المثيرة التي يرونها]، علاوة على الرعاية الأساسية المعقولة مما يجعلهم ينجحون في البقاء في قيد الحياة.

وكتب الطبيب التقرير عن أفضل طريقة لرعاية الأيتام.

بالطبع لم يستخدم الطبيب كلمة «حب».. كلمات كهذه تزعج العلماء ولكنه عناها بوضوح. فالنقاط المهمة التي ذكرها كانت:

- ملامسة الجلد للجلد مراتٍ عديدةً في اليوم ومن شخصين خاصَّيْن أو ثلاثة.
- حركات لطيفة فيها شيءٌ من القوة مثل الهَزّ فوق الرُّكْبة والتنقُّل محمولًا وما شابه ذلك.
- التواصل بالعيون والابتسام والمحيط الغني بالألوان والنابض بالحياة، علاوة على الأصوات كالغناء والمحادثة وما شابه ذلك.

لقد كان اكتشافًا مهمًا تم تدوينه للمرَّة الأولى، فالأطفال يحتاجون للاحتكاك البشري والعاطفة، يحب الأطفال الصغار الملامسة والضم وكذلك الأطفال الأكبر سِنًا لكنهم يهتمون باختيار أولئك الذين يحضنونهم؛ فهذا الذي يسبب لهم السعادة وليس فقط الغذاء والدفء والنظافة، فإذا لم يحصلوا على ذلك يسهُل التسبُّب في موتهم.

وتقلُّ كمية الملامسة (الملامسة المادية – الجسدية) التي يتلقاها الأطفال في حياتهم مع مرور الوقت..

فيظهر أن كمية الملامسة تنخفض عند:

- تنخفض عند انتهاء فترة الرضاعة.
- ترتفع وتنخفض تبعًا لدرجة السعادة الزوجية.
- تنخفض عند ولادة طفل جديد (حيث يُوزَّع الحنان بين أكثر من طفل).
- تنخفض في سِنِّ المراهقة.

هناك إلى جانب الملامسة الجسدية طرق أخرى للحصول على السعادة ومشاعر طيبة من الآخرين، وهي تتمثل في استخدام "الكلمات اللفظية". فالأطفال يحتاجون إلى التقدير ولفت النظر، بل ويفضلوا أيضًا أن يلتقَّوْا شيئًا من الثناء الصادق، فهم يرغبون في المشاركة بالأحاديث، وفي أن يُستمع إلى أفكارهـم بل والإعجاب بهم.

فنحن نعتني بحاجات أطفالنا الجسمانية، فإذا اكتفينا بهذا يظل أطفالنا يفتقدون أشياء أخرى، فهم لديهم أيضًا حاجات نفسية وهي حاجات بسيطة لكنها أساسية ومهمة.

يحتاج الطفل إلى إثارةً من النوع البشري، ففي كل يوم يجب أن يحصل على غذاءٍ من الكلام، وعلى شيءٍ من العواطف والمديح حتى يكون سعيدًا. ونتفرغ لتقديم هـذا بشكلٍ تـامٍّ وليس من وراء جـريدة أو أثناء الانشغال في المطبخ أو مشاهدة التليفزيون؛ فإن الأمر لن يستغرق طويلًا ليصبح أطفالنا سعداء. وهذا ما يريده كل الآباء لأبنائهم أن يكونوا سعداء ومتمكنين في علاقاتهم مع الآخرين؛ ليتمكنوا في المستقبل من الإنتاج والعطاء.

هذه السطور التالية تحـدثك عمَّا يجري داخل نفوس الأطفال «المزعجين» وكيف أن السلوك «السيئ» هو في الواقع نتيجة قوى جيدة (صحية) انحرفت عن الصراط المستقيم.

وسيكون باستطاعتك ليس فقط أن تفهم سبب سوء سلوك الأطفال، وإنما سيصبح باستطاعتك أيضًا أن تقوم بمنع ذلك السلوك وتحويله لتصبح أنت وأطفالك أكثر سعادة.

مفهوم السعادة

هي الحصول على أكبر قدر ممكن من المتعة.

وفي وجدان كل أُمّ..... أمنية أن يعيش طفلها سعيدًا، حتى وإن كانت هي لم تَذُق طعم السعادة في حياتها، وتخطئ كثيرٌ من الأمهات حين يتصوَّرن أن سعادة الطفل في العناية بملبسه ونظافته وتهيئة الوسائل المادية للترفيه عنه؛ إن الحاجات الأساسية للطفل هي الحاجات الروحية والنفسية وهي المؤثر الأساسي على نفسية الطفل ومقياس سعادته.

ولأهمية الفرح لدى الصغار نشرت مجلة (بيكيا بادريس) الإسبانية تقريرًا تحدثت فيه عن الفرح واستمراره في حياة صغارنا. وذكر التقرير أنه حتى يشعر الطفل بالسعادة يجب على الآباء إظهار المَودَّة والحب لأطفالهم في حياتهم اليومية، يجب أن يشعر الطفل بالحب والعاطفة من والديه، ويجب أن تكون هذه المودَّة المذكورة معتادة ومتكررة؛ لأنه لا يوجد شيء أعظم بالنسبة إلى الطفل من أن يشعر بأنه محبوب في أيِّ وقتٍ من اليوم.

يَعدُّ شتاينر/ فالدورف السعادة هي الشعور بالمرح والسرور، إحدى القوى الظاهرة للأطفال في بيئتهم؛ وهم يحتاجون إلى مُعلِّم يُظهر السعادة والمرح في تصرفاته. والأطفال الذين يتمتعون بمثل هذه الأجواء من الحب، والدفء، والأشخاص الجديرون بالمحاكاة، يعيشون في البيئة الملائمة (الديب، راندا، 28، 2018). كما يجب الحَذَر من أيِّ تصرف، أو قول يجري في حضور الأطفال، مما لا يجب للأطفال محاكاته؛ فقدرة الأطفال على المحاكاة قوية، ويمكن أن تُلمح في طريقة رسمهم للحروف، حتى قبل أن يفهموها؛ فالمحاكاة تتعلق بالجسد المادي، بينما تأتي المعاني مع الجسد الأثيري، وهذه لا يجب تعليمها، إلا عند تبديل الأسنان؛ وأي تَعلُّم مرتبط بالحديث في هذه المرحلة، يجب أن يكون من خلال المحاكاة، عبر الاستماع، بدون قواعد لغة، ولا تعليم غير طبيعي، مع تبيُّن أهمية أغاني الأطفال، ذات الانطباعات والإيقاعات الجميلة، كوسيلة للتعلُّم، حيث يكون جمال الصوت، أكثر قيمةً من المعاني؛ وكذلك الحال بالنسبة إلى الحركات الراقصة التي تؤثر بقوة على بناء الأعضاء الجسدية؛ ولهذا، لا يجب إهمالها.

(Wilson, Marguerite Anne Fillion ,2014, 211)

ولسعادة طفلنا يجب:

- إعداده ليكون لديه الأدوات الكافية للتقليل من اللحظات المؤلمة.
- إعداده ليكون لديه الأدوات للتعظيم قدرَ الإمكان من اللحظات السعيدة.
- دَعِي طفلك يعيش الإحساس بالأمان بعيدًا عن مخاطر التهديد.. وكثير من الأمهات تُفقد طفلَها هذا الشعور بتهديدات قد تراها بسيطة، مثل قولها: إذا فعلت كذا وكذا فلن أحبك.. أو إن كنت كذا لن أكلمك؛ فالقيَم والفضائل لا تنمو في جَوٍّ متوتِّر مُهدِّد، بل لا بُدَّ من إشعار الطفل بالأمان.
- ابتعدي عن النقد الزائد واللوم المستمر لأنه يُولِّد الارتباك في شخصية الطفل، ويجرُّه إلى العناد والسلبية والشعور أنه فاشل ولا يصلح لشيء، وبدلًا من ذلك وَضِّحي له أخطاءَه بأسلوبٍ من المحبَّة والاحترام، مثل أنت طفل محبوب وطيب ولا أتصور أن يصدُر منك ذلك.

– أشْعِريه بحُبِّك ولا يكفي أن تحبيه بأعماقك.. بل أظْهِري له المحبة بالكلمة الطيبة والاحتضان والتقبيل، فهذا يجعله يحب نفسه ويحب الآخرين، يقول "روت فينهوفن": "الطفل المرغوب فيه طفل سعيد".

قدم شتاينر/ فالدورف بعض الأفكار التربوية حيث ركَّز على المحاكاة، والمثال، فعن طريقهما يتعلم الأطفال، ويدخلون في علاقات مع بيئاتهم، ولا سيَّما في مرحلة الطفولة السابقة لتغيير الأسنان؛ فالأطفال يحاكون ما يحدث في بيئاتهم المادية بكل ما يحدث فيها، وأثناء عملية المحاكاة هذه تتشكَّل أعضاؤهم المادية، بالصورة الدائمة التي ستبقى عليها، حيث يؤثر ما يدركونه بحواسِّهم على قُوَاهم الداخلية، بما في ذلك السلوكيَّات الأخلاقية وغير الأخلاقيَّة مما يراه الأطفال؛ فإذا شاهد الطفل في عمر ما قبل السابعة، تصرفاتٍ غبيَّة، مثلًا، يفترض دماغه أن الغباء هو ما يجب أن يمارسه في حياته القادمة. وقد يسيء الكبار فهم الصغار في بعض تصرفاتهم كالأم التي تتهم طفلها بالسرقة، بينما هو لا يفعل سوى محاكاتها في أخذ النقود من الدولاب ليشتري لنفسه ما يريد (التيتون، أمينة، 2012: 93-94).

ومن عوامل الشعور بالسعادة لدى الأطفال:

1- تربية أبناء أصحَّاء وسعداء تحتاجُ منك أن تكون شخصًا صحيحًا وسعيدًا.

2- التربية مشاركة وكلا الطرفين (الوالدين) بحاجةٍ لعون الآخر وبحاجةٍ للمساندة المطلقة والمعرفة والاستشارة.

3- التربية مسئولية كبيرة جدًا تقع على عاتق الآباء، والأبناء ليسوا بملكية خاصة لنا.. فكل مرحلة يحتاج فيها الطفل ليقف على قدميه ويساعد ذاته ولكن مع مراقبة الآباء عن بُعْد.

4- مهمة التربية لا تقتصر على الأسرة بل تمتد لتشمل خبرة الأجداد والأصدقاء؛ أي تحتاج لتعاون المجتمع الحقيقي وأنت من تكون هذا التعاون.

5- أن نترك الأطفال ينعمون بنوعٍ من الحرية وألَّا نظلَّ دائمي الانشغال بهم؛ فالطفل يهمُّه أن يعيش ويرى أن لديه والدين سعيدين وليس والدين مُنهكَي القوى متوترَي الأعصاب، فالمطلوب من الوالدين هو الحزم المقرون بالمحبَّة والحنان دون قمعٍ أو إذلال.

6- فترة الطفولة هي من أجمل مراحل عمر الإنسان.. فلا تحرم الطفل منها.. بل علِّمه كيف يستمتع بها..... لأن طفولة ناجحة = مراهقة ناجحة وحياة ناجحة؛ وهذا لا يعني بالضرورة أن تكون الطفولة سعادة مطلقة بل أن تحاول أن تصنع توازنًا صحيًا حقيقيًا.

7- مما يُسهِّل عملية التربية هو مقدار التواصُل الفكري والوجداني بين الآباء والأبناء. ومن هنا فنحن بحاجةٍ للإلمام بأفضل طرق التواصُل مع الأبناء.

8- قانون التواصل يفرض عليك أن تنصتي جيدًا لما يقوله الطفل ويوفر عليكِ مجهود إعطائهم دروسًا مستمرة وتحذيرات وإرشادات في كل شيء، فأنصتي واستوعبي وعلِّقي علي ما سمعتِ لتساعدي طفلك على التعبير عن مشاعره وبذلك يمكنك حل مشاكله.

9- للوالدين أقول: (امنح نفسك فرصة لتكوِّن صورةً مشرقةً وواضحةً عن الطفل السعيد الذي تريده.. وارسم خطة وحدد الأهداف وردد دائمًا (يجب أن يكون ابني طفلًا سعيدًا)).

10- لا تحرم نفسك من الاستمتا ع بالأبوَّة أو الأمومة فهي فرصة قد لا تعود..... فابذل قُصارَى جهدك لتحصد النتائج الرائعة في المستقبل.

11- اندمجي في حياة طفلك وتعرفي إلى أصدقائه وإلى الأماكن التي يحب الذهاب إليها، واعقدي صداقاتٍ مع أولياء أمور أصدقائه، وشجِّعي ابنك على الحديث عن مدرسته، وعن مغامراته وعن أصدقائه وذلك أثناء تجمُّع العائلة.

12- الحوار البنَّاء والإنصات يساعدك على فهم أطفالك أكثر، ويمنحك الفرصة للتفكير بشكل إيجابي أكبر.

13- عندما نتعلم كيف نروِّض الضغوطات التي تواجهنا في الحياة، فذلك ينعكس إيجابيًا على فكر الطفل ويُكسبه المزيد من السعادة.

14- غرس التفكير السليم في عقل الطفل، ومتى ما كان عقل الطفل يفكر، سهل على الوالدين توجيهه والعناية به، ويرى الدكتور" ستيف بيدولف" – وهو عالِم نفس شهير – "إن المشكلة تكمن في طريقة تعبيرنا؛ حيث إن الكلمات الإيجابية تصنع أطفالًا مقتدرين: يتعلم الأطفال كيف يوجهون وينظمون أنفسهم ذاتيًا من طريقة كلامنا في توجيههم وتنظيمهم؛ ولذا فمن المُجدِي أن يتم ذلك بشكل إيجابي.." وهذه أمثلة على نظريته في طريقة التعبير في الكلام مع أطفالنا:

- فلو أردتَ أن تنصحَ ابنَك بأن لا يتشاجر مع زملائه في المدرسة، "فخير جملة" تقول له: العب مع زملائك الذين تحبهم ويحبونك، بدلًا من الإشارة إلى النزاعات والخناقات مع زملائه.
- ولو كان الابن فوق شجرة وتخشى عليه من السقوط فلا تَقُل له: "لا تسقط من الشجرة"، فأنت هنا توحي إليه بعملية السقوط وهي ليست في باله عندما طلع الشجرة ليلعب، ولكن

كيف تتعامل مع هذا الوضع الذي ترى فيه الابن متعلقًا بشجرة عالية، إن التعبير السليم هنا هو "غرس فكرة سليمة في رأسه" بأن تقول له: تمسَّك جيدًا بالشجرة؛ فالهدف من كلتا الجملتين واحد، وهو تحذير الطفل من السقوط، ولكن الأولى توحي للطفل بفكرة السقوط بينما الثانية توحي له بالتمسك بالشجرة.

- ويقول أيضًا إن نصيحة الوالدين للطفل بقولهما له – لا تَجْرِ أمام السيارات – ليس مثل قولهم: ابْقَ بجانبي على الرصيف!! كلتا الجملتين هي نصيحة للطفل للتحذير من مخاطر السيارات والطريق، ولكن الأخيرة توجه الطفل التوجيه السليم، بينما الجملة الأولى غامضة عليه.

المراجع

أولًا: المراجع العربية:

- التيتون، أمينة جمعة جاسم (2012): ثلاثية فلسفة شتاينر/ فالدورف (التفكير، والشعور، الإدارة) مدخل لتعليم بديل، مستقبل التربية العربية، مج 19، ع80، سبتمبر 2012، 65-124.
- الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيِّم (2019): مفتاح دار السعادة، مراجعة: محمد أجمل الإصلاحي – سليمان بن عبد الله العمير، طبعة ثالثة، دار عطاءات العلم، الرياض.
- الديب، راندا مصطفى (2018): فلسفة شتاينر/ فالدورف في تربية الأطفال Waldorf/ Steiner (1861-1925)، ورقة عمل مقدمة إلى المنتدى الدولي للطفولة المبكرة (تحديات وآمال)، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية – جامعة عين شمس بالاشتراك مع مؤسسة مصر للتعليم والتنمية، 28 - 29 أبريل.
ـــــــــ رؤية مستقبلية لتحقيق الجودة في مرحلة رياض الأطفال، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر مركز ضمان الجودة الدولي الأول لجامعة المنوفية، في الفترة من 9-2018/9/10
- بيدولف، ستيف (1999): "سر سعادة الأطفال " دليل الآباء"، ترجمة إياد ملحم، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
- شابيرو، ف. د، لورانس إ. (2004): كيف تنشئ طفلًا يتمتع بذكاء عاطفي، ط 3، مكتبة جرير، السعودية.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (2006): رياض الأطفال في مصر الحاضر والمستقبل، المؤتمر الخامس لوزراء التعليم العرب بعنوان: "التربية المبكرة للطفل في عالم متغير"، جامعة الدول العربية، القاهرة، 10–11 سبتمبر.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- Wilson, Marguerite Anne Fillion (2014): Constructing Childhood And Teacher Authority In A Waldorf Daycare, Binghamton, NY, USA.

- Steiner, Rudolf, (1997):Education as a force for social change,translated by Nancy Parsons Whittaker, Anthroposophic Press, New York.

ثالثـًا: المواقع الإلكترونية:

http://www.yallayaarab.biz/vb/imgcache/16235.imgcach

http://www.aladwaa.nl/modules.php?name=News&file=article&sid

https://gate.ahram.org.eg/News/2961491.aspx

https://l.facebook.com/l.php?u=https%3A%2F%2Fkenoozarabia.com%2F2022%2F12%2F22%2F%25D9%2585%25D9%2581%25D8%25A7%